فى الدين

آى الذكر الحكيم - ٢

للأستاذ العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى

(من قوله تعالى - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها - إلى قوله تعالى - كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور)

كيف يخشى الله من عباده العلماء؟

اللهم إنا خلقنا فى هذه الأرض ، ولم ندر من أين أقبلنا ولا نعرف متى نموت ، وإذا متنا لا ندرى إلى أين ننقل ومع من نعيش ؟ وعلمنا فى هذه الحياة علم ضئيل مع أن الحياة بحر لجى واسع الأكناف عظيم عميق فلا ندرى أوله ولا نعرف آخره . . وغاية الأمر أننا نسمع فى كتابك الكريم تقول لنا - يحبهم ويحبونه - وتقول - وهو الغفور الودود - وتقول - إن ربكم لرؤف رحيم -

فأنت تحب وترحم وتغفر وتود . فنحن أولاء نظرنا فى هذه العوالم المحيطة بنا فألفيناها بحسب إحساسنا جوامد وسوائل وغازا كالحجارة والماء والهواء ، ومن هذه تشكلت عوالم وعوالم انتفعنا بها ولكننا إذا أقفلنا أعيننا وفكرنا ونحن فى حال الصفاء فأننا نحس أن هذه العوالم كأنها نور فى خيالنا ونحس بأن وراءها قوة عالية تحمل هذه الأنوار المتلألئة التى تتخيلها أمانات توصلها إلينا وهى الأرزاق والعواطف والعقول ، فأما الأرزاق فما هى إلا نتائج لأحوال خاصة لتلك الأنوار المتخيلة فى عقولنا وما هى إلا العناصر التى أظهر العلم أنها جميعها أنوار متراكمة متحركة أبدا فأذا تخيلنا العناصر المادية نورا فى أنفسنا فهى فى حقائقها نورا حقا وإن كان نورا متلبدا حتى أصبح مظلما . وهذه الأنوار الحاملات لأمانات الأرزاق الواصلة إلينا هى أيضا حاملات لعواطف وأخلاق تؤثر فى حياتنا كلها . وهذه العواطف نراها واضحة ظاهرة مجسمة فى رحمة الأم وفى عشق الفتى والفتاة . رحمة الأم والعشق والحب الشهوانيين فى الشبان هما أشبه بأنوار البترول الذى نجعله سببا فى إضاءة منازلنا وأشبه بالشمع الذى نوقده فيها أيضا . فأذا كان الشمع المتخذ من أقراص عسل النحل والبترول المستخرج من الأرض قد أضاءا لنا منازلنا بعد غروب الشمس . فهكذا نرى الرحمة والحنان والعطف ثم الحب المتنزلات من العالم القدسى السارى فى الأنوار التى عبرنا

عنها بالمادة قد ظهرت فى الأم بهيئة رحمة وفى الذكور والإناث من الانسان وغير الانسان بهيئة العشق ، البترول فى الأرض وشمع العسل أيضاً أضاءا لنا منازلنا والشمس أضاءت العوالم كلها . ما أشبه ضوء الشمع ونور البترول برحمة الأم وتحاب الزوجين الذكر والأنثى . وقد جعلت لنا ضوء الشمس العام وانتشاره كضرب مثل لعموم رحمتك وحبك وودك . إن البترول والشمع من المواد الأرضية والأرض من الشمس . ورحمة الأم وحب الذكور للإناث فى كل حيوان أثر من آثار الرحمة العامة التى وضعها الله فى الأرض تباسا وهدى لنا ، بها تهتدى إلى فهم رحمتك وحبك وودك ، حتى إذا درسنا ذلك عشنا سعداء سعادة لاحد لها وأمنا أمنا لاخوف بعده .

فهاك أيها الذكى شذرة من شذرات رحمته تعالى العامة وموازنتها برحمة الأم وودها وحبه بمودات الناس وحبهم فنقول أولا . ليس الحب من الله والود والرحمة كما نرى فى حبنا نحن ورحمتنا . إن حبنا ورحمتنا حيوانيان وحبه ورحمته هو قدسيان والله مقدس عن المادة . فحبنا ورحمتنا انفعال فى أنفسنا وحبه ورحمته قدسيان لانعرفهما إلا بآثارهما فى الآفاق وفى أنفسنا . ومن آثارها حنو الأم وحب الذكور للإناث وغرامهم بهن وبالعكس . ولا ريب أن نتائج رحمة الأم بولدها مواصلة الجد والتشمير والسهر على راحة الذرية وجعل جسمها وآرائها وعاطفها وقفا على تلك الذرية من الشفقة والحنان كما يفعل ذلك نفسه العاشق ولكن على طريق الولوع بالوصال

ومن عجب أن نتائج رحمة الأمهات وعشق الفتيان للفتيات إن هى إلا حفظ بقاء النوع الانسانى مثلا . فنتائج رحمة الأم الحرص على بقاء ولدها ، ونتائج العشق والغرام من أحد الصنفين للآخر إنما هو إيجاد ذكور وإناث يخلفان هذين المتعاشقين

الله أكبر : أصبحت نتائج الرحمات ونتائج أنواع الغرام منصبة على بقاء الأشخاص وبقاء الأنواع . فانظر نظرة واعجب من علوم الأشعار التى أذاعها العشاق ، وأنواع المراثى التى يرثى بها الناس موتاهم وأحزان الأمهات والآباء على أبنائهم فكلها موجهات إلى تمنى بقاء هذا النوع الانسانى فماذا يريد العاشق ؟ يريد الوصال ، وما نتائج الوصال إلا حصول ذرية ، وعلام تسهر المرأة إذا مرض ولدها ؟ تسهر على صحته مؤملة أن يعيش ، إذن الحب والرحمة متصلان وموصلان معاً لغاية واحدة هى غاية حياة الأشخاص وحياة الأنواع فأذا سمعت جميلا يشبب فى بثينة ويقول :

وأول ما قاد المودة بيننا ... بوادى بغيض يا بثين يباب

وقلت لها قولا وقالت لمثله ... لكل كلام يا بثين جواب

وسمعته يقول :

وإني لأرضى من بثينة بالذى ... لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

ثم علمت بعد ذلك أنه كلما كان الحب شريفا طاهراً كان أبعث على الأعمال الشريفة ورفعة الشأن وكبر النفس وارتقائها مراقى عالية فى مدارج الرقى فى الحياة وبعكس ذلك إذا تنزل للشهوات الحيوانية فإنه ينطفىء ولا يؤدى مقصوده ، وبالجملة حب الذكر والأنثى إما أن ينتج الذرية وهنا لك ينقلب رحمة للذرية فأن انتهى بالشهوة نفسها وبمجرد المتعة فأنه يكون حقيراً إذ به تسفل النفس وتذل وعاقبته وخيمة ، فأما إذا كان العفاف والشرف فنتائجه تحصل فى نفس العاشق فأن همته تعلو . فنتائج الغرام إما علو فى نفس العاشق إذا كان عفيفا . وإما ذرية ينقلب الغرام الذى كان أولا رحمة بها . وإما سقوط مروءة مع الدناءة والخسة إذا انتهى بالشهوة البهيمية وحدها فأن الذم والعار فى الدنيا يقترنان بالفاسقين

أقول : إذا سمعت ذلك فاعلم أن الحب على (ثلاثة أقسام) حب أدنى . وحب أوسط . وحب أعلى . وقد علمت مراتب الحب الأدنى وهو الحيوانى فأن نتائجه الصحيحة . (اثنتان لا غير) نتيجة ترفع نفس العاشق إلى العلا . ونتيجة توجه لأحداث الذرية . فأما الحب الأوسط فانه أعلى من الحب الأول وهو حب العلوم . وحب العلوم إما أن يكون موجها للعمل بحيث تكون مباحث العلوم لها نتائج راجعة للمجموع الأنسانى كالعلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الصناعات فهذا كالعشق المؤدى إلى ايجاد الذرية . وإما أن يكون موجها إلى المباحث العامة بحيث تكون العلوم كلها موجهات لرفعة نفس النوع الإنسانى من حيث بعث الهمم وارتقاء العزائم واحداث اليقين فى النفوس وتوجيهها إلى المحبة العامة والأخوة والترغيب فى حوز المعالى . فهذا أشبه بالعشق مع العفة الذى أودع فى النفس انبعاثا إلى المعالى ولكن الفرق بينهما أن ذلك انبعاث شخصى وهذا انبعاث عام لأنك علمت أن حب الذكور للأناث حب أدنى وغاية الأمر أن النفس الانسانية بما لها من السلطان والقوة حولته إلى منفعة لها فأحدث لها همة وعلو نفس . أما حب العلوم فهو أوسط . فأذا جعل الانسان حب العلوم وسيلة لجمع المال له خاصة كان حبه أسفل طبقات الحب وكان ذلك أشبه بمن أحب ولا عفة عنده وانتهى حبه بالشهوة البهيمية كما انتهى حب صاحب العلم بالشهوة المالية .

(مثال حب العلم الذى أثبتنا أنه أعلى من سابقه)

ما جاء فى إحدى المجلات المصرية فى شهر مايو سنة ١٩٣٠ من نبأ بعثة علمية دولية تتسلق الجبال من كبار العلماء برياسة الأستاذ (دير فورث) إذ أخذت هذه البعثة تتسلق جبال هملايا المسماة (كانسن جونجا) وهي الثانية فى الارتفاع بعد (إفرست) وأهوال هؤلاء المتسلقين أعالى الجبال أشد من أهوال رواد القطب الجنوبى والشمالى لأن الجليد يغطى قمم الجبال بسمك (٨٠٠) قدم ، وهؤلاء المرتادون يعيشون فوق الجليد والرياح العاتية تعصف بهم وسلسلة جبال هملايا ارتفاعها ٢٠٠٠ ميل ، ومن قممها ما يرتفع ٢٤٠٠٠ قدم وتزيد ، وعدد القمم المذكورة (٧٥) قمة ، ولقد حاول العلماء الوصول إلى أعالى تلك القمم فعجزوا ، وقد ذهب العالم (دوجلاس فيرشفيلد) سنة ١٨٩٩ وقضى سبعة أسابيع فى دورته حوله ووصف المناظر التى رآها فقال إنه لم ير فى حياته ما هو أجمل ولا أبهى من مناظر ذلك الجبل الذى تكسوه فلنسوة من الجليد الأبيض الناصع الذى يشبه القطن النقى المنفوش ، ولقد ورد موارد الهلاك أثناء ذلك التسلق مرات كثيرة

ولقد حاولت ثلاث بعثات الوصول إلى تلك القمم فلم تصل ومات أكثرهم بالرياح العاصفة وبالثلوج التى تنقض عليهم فتهلكهم . أما البعثة الرابعة فهى فى طريقها عند كتابة هذه الأسطر أى فى شهر مايو سنة ١٩٣٠ م

هذه هى الطبقة الوسطى فى الحب وهو حب العلوم . يا سبحان الله . نسمع مجنون ليلى يقول :

وإنى إذا ماجئت ليلى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخضرات البيض ود جليسها إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

ونرى العاشقين فى الدرجة الدنيا يقدمون أنفسهم للهلاك ويقدمون على الموت باطمئنان وراحة بال إذا حرموا من الحظوة بالمحبوب . وفى الدرجة الوسطى وهى درجة العلماء نراهم يقدمون أنفسهم للموت سراعا من أجل قمة جبل أو مناظر قطب . ولكن لما كان حب العلم أعلى كان عاما فى الشيوخ والشبان . وأما ما قبله فهو خاص بالشاب أيام حرارة الشهوة فإذا كبر قال :

قضيت سنوني بالوصال ويالها فكأنها من قصرها أيام
ثم انقضت أيام هجر بعدها فكأنها من طولها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

هذا كلام الإنسان إذا كبرت سنه وتذكر أيام شبابه . أما حب العلم فهو لا يختص بسن معينة بل يزيد بكبر السن . أما الدرجة الثالثة فهى العليا وهذه خاصة بطبقة تمتاز عن سابقتيها . فانظر لأهل الدرجة الدنيا فى العشق فأنك ترى عشقها محصورا فى محاسن إنسان

خاص وهذه لم تجعل إلا توطئة للدرجة الوسطى ، والوسطى مقدمة للدرجة العليا ، وهى درجة العلماء الذين يخشون الله فأذا خشى العاشق فى أدنى الدرجات هجر تلك الفتاة التى افتتن بجمالها . وإذا خشى علماء البعثة العلمية فتلك الثلج بهم فى جبال (هالايا) ولم يحبون أن يتسلقوها . فالعلماء المفكرون الناظرون لهذا العالم أشد خشية لله من خشية عاشق امرأة أن تهجره ومن خشية متسلق جبل أن يهلكه . إن خشية العاشق مقدرة بمقدار جمال المعشوق وعلو قدره والناظرون للجبال والشجر والدواب والماء والزرع والثمرات وما أشبه ذلك . المفكرون فى عجائب هذه الدنيا ، عشقهم وغرامهم لاحد له وخشيتهم لمبدع هذا الوجود لاحد لها . فهؤلاء ينظرون فيقولون . « إن هذا الجسم الانسانى قد أخذ من الارض والماء غذاءه وشرابه . ومن الهواء إصلاح نفسه وحروف كلامه ووصول الروائح له ومن ضوء الشمس هدايته للسبل وتدفئة جسمه وإصلاح أحواله . ومن مناظر السماء ودوران الأفلاك عدد أيامه وشهوره وحساب سنيه . وقد وزعت حواسه على هذه العوالم . فللغذاء والشراب حاسة الذوق . وللمواد كلها من حيث الحرارة والبرودة والثقل والخفة وهكذا حاسة اللمس وللروائح حاسة الشم وللأضواء حاسة البصر وللهواء حاسة السمع . إذن هو لم يذر مخلوقا حوله إلا وجد فى نفسه استعدادا لتناوله تناولا ماديا أو تناولا معنويا .

يقول الحكيم فى نوع الانسان : العوالم كلها متصلات بى فلا كواكب ولا سحاب ولا هواء ولا رياح ولا شجر ولا حجر ولا نبات ولا حيوان إلا لها إتصال بى : وذلك طبعا يدعوه إلى التفكر فيها وهنا لك يبحث فى الجمال الذى نقش فيها كما نظر جميل جمال بثينة وتوبة جمال ليلى وكثير جمال عزة فهاموا فى ذلك الجمال الجزئى من العالم المادى وكما هام العالم (مالرى) والعالم (سومر فيل) والعالم (نوردن) بجمال استطلاع جبال هالايا وطلعوا إليها سنة ١٩٢٤م فما نصبوا خيامهم ومكثوا أسبوعين على جبل جليدى هناك حتى هبت زوبعة اكتسحتهم واكتسحت خيامهم ، ولكن حب الاستطلاع غلب عليهم فقد رجعوا كرة أخرى وصمموا على أن يصلوا إلى مقصودهم أو يموتوا فرجعوا فى ٢٠ مايو من تلك السنة وانضم إليهم غيرهم ، ولكن البرد أهلك أربعة منهم فرجع الباقون كرة أخرى وطلع فوق القمة رجلان منهم فالتهمتهما صحابة قضت على حياتهما .

كل ذلك نتائج حب العلم ، وحب العلم ضحاياه أكثر عدداً من ضحايا حب الذكور للاناث . إن حب الشرف والمجد وهو الحب الأوسط لا تعد ضحايا الغرام المعروف بالنسبة لضحاياه شيئاً مذكوراً . وأرقى منه وأشرف وأعلى منزلة حب الجمال العام فى هذه الدنيا .

ولهذا الحب طائفة أرقى وأعلى من الطائفتين السابقتين ولذتها وسرورها أعلى من سرور الطائفتين قبلهما بما لا حد له ، فلئن اغتر (الدوق أبروزى) عم ملك إيطاليا المعاصر إنما

بارتقاء جبال هملايا ، وكذلك العلامة (دوجلاس فرشفيلد) و (والدكتور بوير) وغيرهما وقالوا جميعاً « إما هلكنا وإما هلكنا » وكذلك غرام كثير بعزة وتوبة بليلى ليكون غرام هذه الطائفة غير محصور فى مناظر الثلج فى أعالى جبال هملايا ولا جبال امرأة خاصة بل غرامها بالنجوم والجبال والشجر والدواب والبحار والأنهار ، فهم يجدون الجمال فى تركيب أجسامهم وتركيب الذرات وخطوات الرياح وهبوب النسمات وعلل الأشجار ونفثات الحشرات وأصوات الطيور وضوء البرق وبهجة السحاب ورؤية الضباب وسير الماء وفهم ذرات الكيمياء ونظام الحركات الكوكبية . فالأشجار والأحجار والأنوار والظلمات والنجوم والعلوم وكل دقيق وجليل من هذا الوجود أنواع من الجمال يذكرهم بمحبوب غائب لم تره عيونهم ولكن أدركته قلوبهم . وهناك يزداد العشق والغرام بازدياد المعرفة إذ لا غرام إلا بمعرفة . فهذا هو المبدأ عند الحكماء المقابل للمبدأ عند الشبان كما قدمنا وملخص هذا (أمران) حب الله تعالى ورحمة المخلوقات . فكما نرى الزوجين انقلب غرامهما إلى حب أحدهما للآخر ورحمة للولد . هكذا هنا ينتج حب العلم (أمرين) حب الله تعالى حباً يليق بجماله ورحمة النوع الانسانى . إذن قراءة أمثال هذا التفسير تنتج حب العلوم وحب العلوم ينتج (أمرين) حب الله تعالى على مقدار العلم بمصنوعاته ورحمة النوع الانسانى ، إذن كلما كثر علم العالم بالعجائب فى هذه العوالم إزداد حباً فى ربه ورحمة لعباده وسعد سعادة لا حد لها لأنه قد وصل إلى اليقين . وهذا كله نتائج هذه الآية . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر — إلى قوله — « إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

طنطاوى جوهرى

فى سبيل التعاون

إلى العليا شعاركم التضامن ... فجدوا فى المسير إلى التعاون

ولا تدعوا التخاذل فى الصفوف ... تأفة جمعنا أصل التهاون

وقوموا بالعزائم ماضيات ... وولوا وجهكم شطر التعاون

تفوزوا بالمغانم كل آن ... ويجدكم على مر السنين

له الفضل العظيم على ذويه ... وفيه عزة المتعاونين

هلموا يا رجال العلم طرا ... وولوا وجهكم شطر التعاون

جيزة

عبد الفتاح نجم